دور المؤسسات التعليمية فى رفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة *

مقدمة

اذا كان المسلمون يشكلون الجمهرة الكبرى من سكان مناطق عدة من العالم، مثل المنطقة العربية، وعدد آخر من البلدان الآسيوية والإفريقية، فإن بلادا أخرى كثيرة يشكل المسلمون فيها أقلية تتراوح بين عدة عشرات من الألوف وبين ملايين قليلة معظمهم فى أوربا وأمريكا وبعض البلدان الآسيوية والافريقية.

وإذا كان المجتمع يسعى عادة إلى إيجاد التجانس والوحدة الفكرية والثقافية بين أبنائه، فإن الأقلية المسلمة تصبح معرضة لخطر الذوبان فى المجتمع الكبير مما يحتم ضرورة السعى الحثيث للحيلولة دون الوقوع في هذا الخطر، ويكون ذلك بانتهاج كافة السبل الممكنة واستنفار كافة النظم والمؤسسات للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف.

ولا تقتصر المسألة على الحيلولة بين الأقلية المسلمة وبين الذوبان فى المجتمع الكبير غير المسلم، وإنما تتعداها إلى ضرورة التنمية الذاتية للمسلمين والتطوير الدائم لأحوالهم الثقافية والاجتماعية.

بل إننا لنزيد على ذلك ضرورة السعى لتوسيع الرقعة الإسلامية وكسب المزيد من الأنصار بجذب من يمكن جذبه إلى الانضواء تحت المظلة الإسلامية بحسن عرض الفكرة الإسلامية والدعوة إليها بالتالى هى أحسن، وتقديم النماذج الطيبة التى تؤكد للآخرين بطريق عملى أن النهج الإسلامى كفيل بأن يبوئ صاحبه مكانة عالية فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

---

* الندوة العالمية للشباب الإسلامى -- الرياض ١٢ ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٦ ١٩٨٦ .

ولا شك أن مثل هذه المهمة لها جوانبها المتعددة اجتماعياً وثقافياً واقتصاديا وسياسياً مما يحتم تضافر قوى كل المؤسسات القائمة واستحداث ما نحن بحاجة إليه للقيام بهذه المهام الرئيسية.

ومن بين هذه المؤسسات التى تلعب دورا خطيرا فى هذا الشأن المؤسسات التعليمية نظرا لطبيعة مهمتها الأساسية وهى بناء البشر مما يتيح لها الفرصة أن تكون ذات أثر لا فى المجال التعليمى فحسب، بل فى سائر المجالات الأخرى .

ولعل هذا يبرز لنا أهمية البحث فى الدور الذى يمكن أن تقوم به المؤسسات التعليمية سعياً لرفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة فى المجتمعات غير المسلمة. ذلك أن مثل هذا البحث يوفر للعمل الإسلامى قاعدة علمية متينة الأسس قوية الأركان بحيث يبعد عن الارتجال والعشوائية التى تؤدى بالعمل إلى الفشل عادة.

ومن الخطأ أن نظن أن المؤسسات التعليمية تقتصر على تلك المعاهد النظامية التى تقدم أطراف المعرفة فى صورة مقررات فى أوقات محددة على أيدى معلمين متخصصين ومحترفين، إنها تشمل أيضاً نوعاً أخر نطلق عليه (مؤسسات التعليم اللامدرسى)، وذلك مثل دور العبادة ووسائل الإعلام والأسرة والنوادى، وغير ذلك من مؤسسات اجتماعية، وذلك لأن عملية بناء الإنسان عملية متكاملة يضرها أن تقتصر على جانب منها، تختص به المدرسة أو الجامعة.

مشكلة البحث :

يمكن تحديد المشكلة التى يحاول هذا البحث التصدى لها من خلال طرح التساؤل الرئيسى التالى :-

(ماالدور الذى يمكن للمؤسسات التعليمية أن تقوم به من أجل رفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة)؟

ويقتضى هذا محاولة الاجابة على الأسئلة الفرعية التالية :

أ – ما الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة ؟

ب – ما المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة ؟

جـ – إلى أى حد تختلف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف أوضاع المجتمعات غير المسلمة؟

د– ما أهم المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد هذه الاحتياجات؟

هـ– كيف يمكن تحقيق التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى؟ ... الى غير ذلك من تساؤلات .

خطة البحث :

بناء على ما سبق يقتضينا الأمر أن نعالج النقاط التالية :

١– الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة .

٢– المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة.

٣– اختلاف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف المجتمعات غير المسلمة.

٤ المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة.

٥– التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى.

٦ الدور الذى لا بد من القيام به لرفع المستوى الثقافى للأقلية المسلمة.

obeikan.com

٧- مراجع مختارة .

وفيما يلى من صفحات تفصيل لهذه الخطوات ...

الاحتياجات التربوية :

لسنا فى حاجة ملحة فى هذا المقام لأن نغوص فى تفاصيل تلك الفروق الدقيقة التى حاول الباحثون أن يشيروا إليها بين عدد من المصطلحات التى تكاد أن تنتهى إلى نطاق واحد مثل (الحاجات) و (الاحتياجات) و (المتطلبات) و (الدوافع) وما إلى ذلك، وإنما يسمح المقام لنا بإشارة عاجلة موجزة إلى فرق دقيق بين (الحاجات) و(الاحتياجات) يكمن فى أن الأولى أقرب الى الجانب البيولوجى، أما الثانية فهى أقرب إلى الجانب الاجتماعى [١] . ومن ثم فإن (الاحتياجات) تكون أقرب تطابقا - مع بعض التجاوز - مع (المتطلبات) وتكاد (الدوافع) بدورها - مع بعض التجاوز - أن تتطابق مع (الحاجات) .

وعلى الرغم من تلك التفرقة الدقيقة التى أشرنا اليها بين (الحاجات) وبين (الاحتياجات)، إلا أن هذا لا يمنعنا من استخدام الأولى كمثال لشرح الثانية خاصة ونحن نعلم أن المستوى (البيولوجى) أبسط دراسة وملاحظة من المستوى (الاجتماعى) [٢].

إن للإنسان مستوى معينا من التوازن فى (وجود) العناصر التى تدخل فى تكوينه، فاذا أخذنا الماء على سبيل المثال، سنجد أن جسم الإنسان لا يقوم إلا بقدر معين كحد أدنى منه، فإذا نقص هذا القدر عن الحد الأدنى يوشك التوازن فى (وجود) عناصر الجسم أن يختل ويدخله فى دائرة الاضطراب فيشعر بـ (حاجة) الى الماء و (دافع) إلى الشرب. [٣]

كذلك فإن للإنسان شخصيته الخاصة الاجتماعية المكونة من عدد من الخصائص والعناصر. لكننا هنا نكون أمام صورة (مثالية) لا (واقعية) لكنها غير (مفارقة) أو (متعالية) ..إنها تدخل فى دائرة (لأهمية الاجتماعية) و (الضرورة الدينية) .. وبدون تحققها تصبح حياة المواطن مضطربة .. قلقة .. غير موفقة .. ومن هنا تمثل هذه الصورة مجموعة (احتياجات) المواطن .. وهى بطبيعة الحال تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف الثقافة، كما أنها تختلف من عصر إلى آخر لنفس السبب . (٤)

فإذا جئنا إلى مجال التطبيق بالنسبة لموضوعنا، فسنجد أن الأقليات المسلمة تعيش فى مجتمعات لها معاييرها وقيمها ومثلها وطموحاتها وأساليبها الفكرية وعاداتها وتقاليدها مما لا بد منه كي تتوفر للمواطن (الكفاية الاجتماعية) الضرورية لحسن معيشته وتعامله. وبحكم كون المسلمين فى مثل هذه المجتمعات (أقلية) فإن هذا يعنى – باحتمال غالب وترجيح واضح – أن مثل هذه المكونات اللازمة لكفاية المواطن الاجتماعية قد لا تتماثل مع المكونات اللازمة للشخصية المسلمة التى يتطلبها الدين من الإنسان المسلم . ومن ثم يكون المواطن المسلم فى هذه المجتمعات أمام فئة أخرى من المكونات التى لا بد من توفرها لديه.

إن هذه العناصر اللازمة لشخصية المواطن ليرتفع إلى مستوى (الكفاية الاجتماعية) اللازمة للمجتمع الذى يعيش فيه تمثل (احتياجات) تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف المجالات والميادين، من سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية .. الخ (٥) .

وكذلك فإن العناصر اللازمة لشخصية المسلم تمثل (احتياجات) ضرورية لهذا المواطن أيضاً.

واذا كانت الاحتياجات لها مضمونها الذى يجعلها اقتصادية أو اجتماعية (وسياسية) فإن (الطريقة) التى نلجأ اليها لسد هذه الاحتياجات هى مما ينتمى الى عالم التربية والتعليم، فإذا كان المواطن فى احتياج إلى اكتساب عدد من المهارات التى تمكنه من أن يكون عاملا فنياً، فإن (طريقة) اكتساب هذه المهارات مما تختص به التربية ويختص به التعليم، أما المحتوى، فهو مما يختص به كل من عالم (الهندسة) و (الاقتصاد). [٦]

لكن هذا لا ينفى وجود احتياجات لها مضمونها التربوى الخاص مثل الاحتياج إلى اكتساب القيم الاخلاقية اللازمة.

ومن ثم فإن الاحتياجات التربوية يتسع مداها ليشمل فئة خاصة بها، بالإضافة إلى أهميتها وضرورتها كـ (جسر) وكـ (أداة) لاكتساب الاحتياجات الأخرى .

وعندما ننطلق إلى محاولة تحديد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة فإن المحاولة ليست سهلة يسيرة .. إن المنهجية العلمية تقتضى دراسة ميدانية يقوم بها فريق من الباحثين فى عدد من المجتمعات التي توجد فيها هذه الأقلية ، وهو عمل يستغرق شهورا طويلة . وبالطبع فإن هدفا مثل هذا تنوء به قدرة هذه (الورقة) مما يجعلنا أمام سبيل آخر ينحو بالكتاب إلى (تصور) تقريبى لا نستطيع أن نزعم أن له الإحاطة والدقة. وليس معنى أنه (تصور) أنه يقوم على (التخيل) وإنما قد توفر له - بحمد الله - قدر من الملاحظة الشخصية والقراءات المتعددة .

- إن الانسان المسلم كعضو فى أقلية اجتماعية - يكون بالدرجة الأولى فى حاجة ملحة إلى أن يفهم أساسيات الدين الإسلامى وأن يقوم هذا الفهم على قواعد راسخة ومفاهيم واضحة، بدرجة تجعله واعيا إسلاميا .

– والمسلم هنا لايقتصر احتياجه علي مجرد (الفهم) و (الوعى) . وإنما هو أيضاً بحاجة إلى (ممارسة) شعائر الدين وخاصة في الصلاة والصيام ..

– وهو بحاجة إلى (التكافل الاجتماعى) بين أقرانه من المسلمين ، ومن ثم إلى ضرورة القيام بواجب (الزكاة) كسبيل أساسى لتحقيق التكافل المطلوب.

– وهو لكى يفهم دينه ويعيه لا بد له من امتلاك الأداة الرئيسية لذلك ألا وهى اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم.

– والمسلم فى هذه المجتمعات يكون بحاجة إلى التسلح بقدر من الوعى والتفكير الناقد الذى يجعله يكشف (الدسائس) الفكرية التى قد يدسها أعداء الأمة الإسلامية على الفكر الإسلامى، فتكون مثل هذه الأقليات أولى ضحاياه عادة .

– والتوعية الإسلامية عملية لا بد أن تكون (مستمرة) غير مرتبطة بفترة زمنية محددة فى مرحلة تعليمية معينة، ذلك أن المسلم هنا يظل طوال حياته معرضا لزخم لا ينقطع من الأفكار والمذاهب والآراء التى قد تتناقض أو تتضاد مع العقيدة الإسلامية.

– واذا كانت ظروف المسلم فى هذه المجتمعات قد فرضت عليه أن يعيش فى محيط كبير لا يشاركه الملة والعقيدة، إلا أنه يظل منتميا إلى إخوانه المسلمين فى مجتمعات الكثرة المسلمة ، ومن ثم فهو يكون بحاجة ملحة إلى الارتباط بها إعلاميا خاصة وأن وسائل الإعلام فى المجتمعات غير الإسلامية تهمل عادة كل ما يتصل بالعالم الإسلامى إلا ما يسى إليه فقط ، فإنها تلح عليه وتنشره وتذيعه وتبالغ فيه مثل ما يتصل بالمنازعات

والمعارك المؤسفة التى تقع أحياناً بين بعض البلاد الإسلامية.

- والمسلم يحتاج إلى تحصيل العلم، كل فى الفرع الذى يميل إليه ويرغب حيث أن العلم هو أهم مظاهر (القوة) فى عصرنا الراهن حيث لا تقتصر القوة على مجرد امتلاك القدرة (الاقتصادية والعدة العسكرية) بل لا بد أيضاً من (القدرة العلمية) التى هى وسيلة الوصول إلى المقدرة الاقتصادية العالية والمقدرة العسكرية المتقدمة . (٧)

- والمسلم بأمس الحاجة إلى أن يقدم فى مثل هذه المجتمعات (مثلا أخلاقيا) رفيع (المستوى)، فهو فضلا عما يؤدى إليه تقديمه لهذا المثل الأخلاقى من تحقيق لأهداف العقيدة الإسلامية وسلامة بنية المجتمع الإسلامى ، فإنه يقدم لغير المسلمين صورة مشرفة للشخصية المسلمة قد يكون لها تأثيرها فى جذب البعض إلى ديننا الحنيف .

- والمسلم الذى حصل وعيا طيبا بأساسيات دينه لا يستطيع أن يقنع بذلك متصورا أن الهدف تم الحصول عليه .. كلا فهناك بالضرورة مسلمون آخرون لم تتيسر الظروف اللازمة لهم لكى يحصلوا ما حصله، ومن هنا فالإسلام يحتم دائما على من يعلم أن يعلم ما تعلمه فى المجال الدينى للآخرين .. ليس بالضرورة أن يكون مطالبا بأن يتحول إلى داعية، وإن كان هذا مطلبا هاما، ولكن على أقل تقدير يسهم فى واجب (توعية) الآخرين ونقل الرسالة الإسلامية لإخوانه.

- ومما يكمل هذا ايضاً أن تمتد المسئولية إلى (إعلام) غير المسلمين بالصورة الحقيقة للإسلام عقيدة وشريعة .

المشكلات التربوية التى تواجه الأقلية المسلمة :

لعل من أخطر المشكلات التربوية التى تواجة الأقليات الإسلامية هى

أن المسلم لا يعيش مجتمعاً إسلامياً : نقول هذا من منطلق أن المجتمع هو الوسيط المربى الأساسى ، إذ مهما تعددت وسائط التربية وأجهزتها ومؤسساتها فسوف يظل المجتمع هو (الرحم) الذى تنبت فيه شخصية المواطن إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ، ومن هنا فإن وجود المسلم جزءا من أقلية وسط كثرة غير مسلمة يجعله يضع أبناءه فى (رحم) مختلف تماماً يغذيه آناء الليل وأطراف النهار بالمثل والقيم والطموحات غير الإسلامية.

أن شأنا مثل هذا له خطره المزدوج، فهو أولا يعيق ما قد يتم من تربية إسلامية لأبناء المسلمين سواء عن طريق الأسرة أو عن طريق مؤسسات أخرى، ذلك أن فعل التربية لا يؤتى ثمره كاملا إذا كان هناك ما يفعل فعلا معاكسا. وهو من ناحية ثانية يوقع الأبناء فى صراع حاد بين (تربية) يطمح إليها ويسعى نحوها يتطلبها دينه، وبين (واقع) اجتماعى يسير به فى اتجاه آخر، وهو إن أخلص تماماً لتربيته الإسلامية خاف أن يبدو فى الوسط الأكبر غريبا مغتربا، وهو إن تجاهل هذه التربية وانغمس فى الوسط الأكبر بما فيه، عاش تحت سياط ضمير يلهب فكره ووجدانه بضربات مؤلمة لانه قد تنكب طريق الإسلام.

إن هذا ينقلنا إلى مشكلة أخرى نواجهها نحن أيضا فى المجتمعات المسلمة، ألا وهى ما اصطلح على تسميته بـ (الأصالة والمعاصرة)، إنها بالنسبة للمسلم الذى يعيش فى مجتمعات غربية تكون أشد وطأة وأكثر إلحاحاً. إن المسلم هنا يكون أمام تحد كبير لتحقيق هذه المعادلة.. كيف يصبح الإنسان مسلما حقا، ومعاصرا يعيش أصداء العصر ومطالبه ؟

إن الدراسة المتأنية لهذه القضية ربما تكشف عن عدم وجود تعارض وتناقض، وهو مانؤمن به شخصيا، ولكننا نتحدث هنا عن حقيقة قائمة فى التكوينات الشخصية تجعل من كثيرين وكأنهم يقفون أمام طريقين، إما هذا وإما ذاك.

وإذا كانت التربية لا تقف عند حد (الفهم) و (العلم) و (الوعى) وإنما تتطلب (عملا) و (ممارسة) ، فإن الأقلية المسلمة قد لا توجد صعوبة فى توفير (الوقت) و (المكان)، المناسبين لدراسة ما يتصل بالصلاة، ولكنها قد تجد صعوبة (عملية) فى هذا الشأن وخاصة فى المجتمعات الغربية بحكم ظروف العمل ونظامه ونظام العطلات الأسبوعية والموسمية. ونفس الشئ يمكن قوله بالنسبة للقيام بفريضة الصيام وفريضة الحج.

وبالطبع فإن من أهم المشكلات أيضا أن أبناءهم وبناتهم يتعلمون فى مؤسسات تربوية لا إسلامية على أيدى معلمين غير مسلمين فى أغلب الأحوال مما يعرضهم لخطر الذوبان فى المجتمع الكبير وإضعاف الهوية الإسلامية، ولعل ما يمكن الإشارة إليه هنا ما تكون عليه المدارس من اختلاط بين البنين والبنات فى تلك المرحلة الدقيقة من عمر الأبناء ألا وهى مرحلة المراهقة بصفة خاصة، فضلا عن المرحلة السابقة واللاحقة. والمسألة لا تقف عند حد معلمى هذه المدارس وعلومها وكتبها وإدارتها، وإنما تكمن المشكلة كذلك فى جماعات الرفاق التى تلعب دور خطيرا فى التأثير على شخصية الطالب ربما يفوق فى بعض الأحوال دور المعلمين أنفسهم.

كذلك فإن غياب اللغة العربية يجعل السبل وعرة والطرق عسيرة أمام المسلم فى هذه المجتمعات كى يدرس دينه ويقرأ القرآن الكريم والأحاديث النبوية. صحيح أن هناك ترجمات، لكنها مهما أوتيت من دقة، إلا أن الإحاطة الدقيقة والوعى السليم والبصر العميق بأصول الإسلام يتأتى بدرجة أكثر فاعلية عن طريق الدراسة الكافية باللغة العربية.

وإذا كان البعض قد جاء مهاجرا من بلد عربية مما يجعله مالكا لناصية (اللغة) إلا أن أبناءه ينسونها بالتدرج لأنها لا تمارس فى المجتمع

الخارجى. بل إن الكبار أنفسهم قد يتعرضون لمثل هذا النسيان لنفس السبب.

ومن المسلم به افتقاد الأقلية المسلمة للعدد الكافى من المعلمين والمربين وعلماء الدين الذين يمكن لهم أن يقوموا بواجب لتربية الإسلامية وتعليم اللغة العربية خاصة بالنسبة لغير الناطقين بها. صحيح أن بعض البلدان الإسلامية توفد مبعوثين لهم، إلا أن عدد هؤلاء غير كاف، ونخشى أن نقول : أن نوعيات بعضهم قد لا تكون بالمستوى المطلوب بسبب ما قد يتم من (وساطات) فى اختيارهم إذا كانت الجهة التى يبتعثون إليها هى أحد البلدان الغربية المتقدمة .

ولا نستطيع أن نغض الطرف عما تتعرض له بعض الأقليات المسلمة من صور (غسيل المخ) والحرب الفكرية وخاصة فى المجتمعات الشيوعية، حيث يتعلم الأبناء غالبا ما تهاجم به الأديان بصفة عامة، والدين الإسلامى بصفة خاصة، ويمنع الجميع من ممارسة شعائر الدين، أو توضع أمام الممارسة العقبات والصعاب. هذا فضلا عما يتعرضون له من إرهاب فكرى يجعل تداول الكتب الإسلامية عسيرا، ونشر الأفكار والآراء الإسلامية محجوار عليه.

ويتعرض أبناء الأقليات المسلمة وخاصة فى البلدان المتقدمة صناعيا سواء فى المجتمعات الماركسية أو المجتمعات الأوربية و لإمريكية لصور متعددة من الحياة الجنسية بلا حياء مما قد يغرى البعض بالانخراط فى علاقات مماثلة والذين يستطيعون الصمود، فإنهم قد يعانوں من مشاعر ضاغطة من الكبت الجنسى حيث عوامل الإثارة متعددة وكثيرة وقوية تكاد تحيط به فى كل مكان.

والتعليم يحتاج دائما إلى قاعدة اقتصادية يقوم عليها، وهنا نجد عددا غير قليل من الأقليات المسلمة تعيش أوضاعا اقتصادية متدنية مما يجعل الهم الأكبر للآباء هو توفير لقمة العيش والكساء والمأوى وغير ذلك من الاحتياجات الأساسية التى يجدها بصعوبة بالغة، وقد لا يجدها. ومن هنا يصبح من العسير أن يعنوا بتعليم أبنائهم فضلا عن أنفسهم. ومن المعروف أن تردى الوضع الاقتصادى يجلب معه نوعا آخر من التردى، ألا وهو الوضع الصحى لافتقاد التغذية اللازمة وصعوبة النظافة والوقوع فى براثن الحشرات المتعددة، وهذا وذاك مما يشكل عقبة رئيسية أمام التعليم، بل إن بعض الأقليات المسلمة ذات الوضع الاقتصادى المعقول تقف أحيانا عاجزة أمام التكاليف الباهظة اللازمة لتوفير مسجد مثلا أو لتوفير مدرسة خاصة لما قد يحدث من (فتور) لدى بعض الأفراد من حيث المساهمة المالية.

وقد تؤدى (تجربة) الجهود التعليمية وتفرقها بين هيئات وجمعيات مختلفة إلى ضعف هذه الجهود أو إلى صعوبة صمودها أمام ما تواجهه من مشكلات ومن صعاب، بل وأحيانا من تضاد وتناقض تكون فيه بعض النظم السياسية الخارجية مسئولة عن إذكائه فى كثير من الأحوال وتعميقه وتوسيع نطاقه.

أما الكتب الدينية والكتب الدراسية، فهى مع الأسف الشديد، ليست بالوفرة التى تمكن أبناء الأقليات المسلمة من الاستعانة بها من أجل التثقيف فضلا عن تعليم وتعلم الأساسيات. ولا بد هنا من الإشارة بكل تقدير إلى الجهود الواضحة التى بذلتها رابطة العالم الإسلامى فى هذا الشأن.

اختلاف الاحتياجات والمشكلات التربوية باختلاف المجتمعات غير المسلمة :

ترتبط الاحتياجات والمشكلات التربوية ارتباطا رئيسيا بالبنية الأساسية التى يكون عليها المجتمع، ذلك أن النظام التربوى عادة ما يكون نظاما فرعيا ضمن مجموعة من النظم مثل النظام الاقتصادى والنظام السياسى والنظام الاجتماعى.... إلى غير ذلك من نظم يتكون منها المجتمع. وسبل التأثير والتأثر تحكم علاقات هذه النظم بعضها بالبعض الآخر. (٨)

ومن هنا كان من الطبيعى أن يحدث تباين واختلاف بين احتياجات ومشكلات تعانيها أقلية مسلمة فى مجتمع عن تلك التى يواجهها مسلمون آخرون فى مجتمعات أخرى. وإن كان هذا لا ينفى وجود قدر من التماثل والتشابه التقريبى بين بعض وآخر. إن هذا لا ينفى القاعدة التى نقيم عليها حديثنا بل تدعمه وتؤكده، وبيان ذلك أن هناك بطبيعة الحال سياسات متماثلة بين بعض المجتمعات تجاه الأقليات المسلمة مما يماثل بين مشكلاتهم بنفس القدر. وعلى سبيل المثال فهناك سياسة موحدة على وجه التقريب فى المجتمعات الماركسية تجاه المسلمين، ومن ثم فمن المتوقع وجود تشابه بين مسلمى بلد مثل المجر مع احتياجات ومشكلات مسلمى تشيكوسلوفاكيا، وغيرهما من البلاد ذات نفس النظام .. وهكذا.

ويمكن اقتراح ثلاث فئات تنقسم اليها - على وجه التقريب - المجتمعات ذات الأقلية المسلمة وهى :

١- المجتمعات الغربية مثل الدول الأوربية والأمريكية، وهى مجتمعات تسير بصفة عامة على الطريق الرأسمالى اذا تغاضينا عن بعض

اللمسات او النزعات الاشتراكية فى بعض البلدان مثل السويد وانجلترا، والدين الغالب فيها هو الدين المسيحى مع تفاوت فى المذاهب من بروتستانتية إلى كاثوليكية إلى إنجيلية .. وهكذا.

والحركة الاستعمارية التى تعرض لها العالم الإسلامى طوال القرنين التاسع عشر وجزء من القرن العشرين، إنما حملت لواءها كبريات هذه الدول وفى مقدمتها انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وكان من آثار ذلك نزوح عدد غير قليل من أبناء المجتمعات الإسلامية المستعمرة إليها وهؤلاء بحكم هذا التراث وهذه الوضعية يواجهون مشكلات ذات نوعية خاصة ويحتاجون الى أمور معينة لحل هذه المشكلات.

٢- المجتمعات الماركسية، وفى مقدمتها بطبيعة الحال الاتحاد السوفيتى والصين ثم عدد من البلدان الأوروبية مثل تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغسلافيا والمجر.

فالمسلمون هنا يتعاملون مع اقتصاد تحكمه الدولة وتسيطر عليه مما يجعل من المستحيل بالنسبة إليهم افتتاح مدارس خاصة وبناء أو شراء أماكن لتأدية الصلاة، بينما لا يمنع القانون مثل هذا بالنسبة لمسلمى الدول الغربية.

كذلك نشير إلى ما سبق أن ذكرناه من تعرض الأبناء الى تعليم مضاد للدين فى المدارس بصورة علنية غير مستورة، فالفلسفة الماركسية بتوجهاتها مقرر أساسى فى مختلف مراحل التعليم ولا توجد أدنى فرصة للطلاب المسلمين أن يدرسوا شيئا يتصل بدينهم، بينما يجد المسلمون فى المجتمعات الغربية في سياسة (الحرية

الدينية) ما يمكنهم من الحصول على القدر الذى يستطيعونه من التثقيف الدينى وممارسة الشعائر الإسلامية. ولا أنسى فى هذا المقام تلك الصورة المشرفة التى رأيتها لمسلمى مدينة بوسطن الأمريكية عندما أقاموا صلاة عيد الفطر كعادتهم كل عام، وكان ذلك فى أضخم معهد فى العالم للتكنولوجيا وهو المسمى بـ (M . I . T)، وكان صوت التكبيرات يجلجل بحرية دون اعتراض من أحد.

كذلك من المعروف أن لأى مجموعة من الطلاب أن تكون جماعة خاصة – ومنهم المسلمون بطبيعة الحال – لتمارس النشاط العقدى الذى تريده.

٣- مجتمعات العالم الثالث، ويقع معظمها فى قارتى آسيا بدرجة بسيطة وإفريقيا بدرجة أوضح. أما بلدان أمريكا الجنوبية واستراليا، فالعدد قليل للغاية وهنا نجد أن مظلة التخلف مع الأسف الشديد تظلل هذه المجموعة بحيث تتصدر الاحتياجات والمشكلات الاقتصادية والصحية غيرها من الاحتياجات.

وربما لا نجد لدى بعضها حجرا من الدولة على النشاط الدينى الإسلامى فى المجال التربوى، لكن سوء الأوضاع الاقتصادية – كما سبق أن أسلفنا – يجعل الأقليات هناك (مهمومة) بلقمة العيش بالدرجة الأولى، ويكفى التذكير بتلك الصور بالغة البؤس والمرارة للآلاف فى إثيوبيا مثلا والهند ممن عانوا الجفاف والموت جوعا. وإن كان يمكن أن يفتح سبلا أمام أبنائها لتلافى هذه المشكلات الطاحنة الطاغية. بيد أنه يضعف من هذا الاحتمال أن التعليم القادر بالفعل على تكوين الكفايات العلمية والفنية مكلف وليس سهلا، وفئات المسلمين هنا لا تستطيع تحمل نفقاته، إلا أن يكون تعليما بسيطا لا

يتعدى حدود القراءة والكتابة. وتعليم بهذا القدر من البساطة تكون قدرته ضعيفة على تفجير طاقات أبناء المسلمين وتحويلهم إلى ثروة بشرية ذات تأثير فعال وقوة اقتصادية ذات بال.

كذلك فإن (الجدب الثقافى) العام الذى تعيشه كثير من هذه البلاد، وهو مالا يوجد مثله فى المجتمعات الغربية أو الماركسية، يكون له دوره المخيف فى استمرار حالة (السبات) الفكرى والاسترخاء الثقافى لدى جماعات المسلمين على الأقل بحكم (العدوى).

المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية :

لكى نقف على المؤسسات التعليمية التى يمكن أن تسد الاحتياجات التربوية للأقلية المسلمة ، لا بد أن نحدد أولا ما نقصده بالمؤسسة التعليمية ؟ بل إننا حتى قبل أن نحدد ما نقصده بالمؤسسة التعليمية، لا بد أن نحدد ما نقصده بالتعليم. إن البعض قد يعتبر ذلك (تزيدا) فى الكلام على اعتبار أن أمر (التعليم) واضح للناس لا يكتنفه غموض. لكن هذا غير صحيح .

إن لغتنا العربية بها من الدقة فى تحديد المفاهيم والمعانى، ما ينبغى استثماره من أجل الوضوح الفكرى والتحديد السليم لمجال العمل، ففى اللغة الانجليزية نجد أن كلمة Education يترجمها البعض منا بـ (التعليم) ، والبعض الآخر بـ (التربية) لكننا إذا أردنا الدقة فليس هناك ترادف بين الكلمتين إذ أن المقصود بكلمة (التعليم) يمكن أن يندرج تحت كلمة (التربية)، لكن العكس غير صحيح.

إن التعليم، هو ذلك الجهد المنظم المقصود الذى يبذله فريق من

المتخصصين المؤهلين لتزويد الطلاب بكم من المعرفة والقيم والاتجاهات والمهارات وفق برامج محددة موضوعيا وزمنيا فى مؤسسات خاصة أقيمت لهذا الغرض. أما التربية فهى ذلك الجهد الواعى القائم على بصر من أجل إحداث تغييرات مرغوب فيها فى شخصية المواطن تكسبه (الكفاية الشخصية والكفاية الاجتماعية)، وتسعى دائما إلى المحافظة على ثقافة الجماعة وكذلك إلى تجديدها وتطويرها. (٩)

الأول لا بد أن يتم على أيدى متخصصين محترفين، وهم المعلمون، أما الثانى فليس ذلك ضروريا.

الأول لا بد أن يتم فى مؤسسات متخصصة أقيمت لذلك، أما الثانى فليس ذلك ضرورياً.

الأول لا بد أن يتم وفق برامج محددة زمنيا وموضوعيا، أما الثانى فليس ذلك ضروريا.

إن مثالا واحدا يمكن أن يزيد الصورة ايضاحا ...

فـ (المدرسة) مؤسسة تعليمية تنطبق عليها كافة الشروط التى ذكرناها واصفين بها التعليم ... أما (النادى) – مثلا – فليس كذلك ... إنه مكان مفتوح لكل الأعمار، نستطيع أن ندخله اليوم ولا ندخله بعد ذلك لعدة أسابيع أو حتى شهور... وهو متعدد الوظائف والأغراض بحيث لا نستطيع القول بضرورة قيامه على يد عدد من المتخصصين المتفرغين لوظيفة (التعليم) فقط. إنها يمكن أن تكون إحدى وظائفه، لكنها ليست وحدها، وهذا ما يجعلنا ندخله فى تلك الدائرة الأوسع ... دائرة (التربية).

ومن هنا، فإذا وضعنا الاحتياجات والمشكلات التربوية للأقلية المسلمة أمام نظرنا فسوف نجد أن (المؤسسات التعليمية) وحدها يستحيل

عليها أن تفى بالغرض إذ لا نجد أمامنا إلا المدارس والمعاهد والجامعات مما يمكن تسميته بالمؤسسات التعليمية، ومثل هذه المؤسسات هى غالبا ما تقع فى يد الدولة أو الهيئات الاجتماعية التى تديرها وتضع لها من البرامج ما يجعلها تسير فى اتجاه الأكثرية.

صحيح أن هناك مجتمعات تسمح للأقلية بافتتاح مدارس خاصة بها، إلا أن قيام الأقلية بافتتاح (جامعة) أمر جد عسير وأخشى أن أقول إنه شبه مستحيل فى أغلب الأحوال . كذلك - فكما أسلفنا - هناك مجتمعات لا تسمح بذلك سواء بالنسبة للجامعات أو المدارس، أيضا فإن فرص العمل فى مجتمع الأكثرية غير المسلمة لا تفتح عادة إلا لخريجى معاهد تسير برامجها فى دائرة الاطار العام لهذا المجتمع.

إن هذا يجعلنا نقترح ألا يتجه جهدنا الأساسى إلى ما نسميه بـ (المؤسسات التعليمية) وحدها، وإنما إلى (إلى المؤسسات التربوية)، إذ إن هذا يفتح أمامنا آفاقا واسعة، فنستثمر كل وسيلة ونستغل كل مؤسسة يكون لها دور فى تشكيل شخصية المواطن وذلك مثل (الإذاعة) و (التلفزيون) و (النادى) و (الصحافة)، وأهم من كل هذا وذاك (الأسرة) ... ذلك الوسيط التّربوى الأساسى الذى يفوق دوره، دور سائر الوسائط التربوية.

ويمكن أن نطلق على المؤسسات المتخصصة فى التعليم اسم (مؤسسات التعليم المدرسى) دون إن يعنى هذا ربطها بـ (المدرسة) وحدها، وإنما كذلك المعاهد والجامعات، أما تلك المؤسسات ذات الآثار التربوية العامة فيمكن أن نطلق عليها اسم (مؤسسات التعليم اللامدرسى). وكذلك يمكن أن نطلق على الأولى أسم (مؤسسات التعليم النظامى) وأن نطلق على الثانية اسم (مؤسسات التعليم اللانظامى).

إن خروجنا من دائرة التعليم النظامى (المدرسى) – دون إهماله طبعا– واستغلالنا لطاقات التعليم اللانظامى (اللامدرسى) يجعلنا نتلافى الكثير من الأخطاء والثغرات التى أصبح كثيرون يلحقونها فى الأول، مثال ذلك :

– عجز التعليم النظامى عن مسايرة التغير، فضلا عن قيادته والتحكم فيه.

– التركيز على الحفظ والاستظهار فى وقت أصبح الاتجاه فيه يركز على (الكيفية) و (الطريقة)، أو بمعنى آخر على (تعويد) الانسان على المواجهة الذاتية للمواقف والمشكلات بعقل مفتوح وفكر ناقد.

– سيادة بعض المفاهيم الخاطئة عن التعليم مثل : (التعليم يعنى التعليم المدرسى – التعليم هو نقل المعرفة – الحياة مقسمة الى فترتين : فترة التعليم والإعداد للحياة، وفترة العمل – أن التدريس هو العنصر الاساسى فى التعليم – المعلمون لهم حق احتكار نقل المعرفة) ... وهكذا.

التكامل بين مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى :

وإذا كنا قد أكدنا على ضرورة الاستعانة بمؤسسات التعليم اللامدرسى مثل الاذاعة والصحافة والتلفزيون والأسرة والمسجد والنادى وغيرها، إلا أنه من الضرورى أن نضع فى الاعتبار ضرورة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية، ألا وهى ضرورة التنسيق والتكامل والاتساق بين جهود مؤسسات التعليم المدرسى ومؤسسات التعليم اللامدرسى.

فإذا كان أبناء الأقلية المسلمة يتلقون فى المدرسة قيما ينكرها ديننا الإسلامى فلا بد أن تسرع الأسرة – مثلا – بتصحيح ذلك الأمر، أما إذا كانت المدرسة تابعة للمسلمين، فلن نجد بطبيعة الحال تناقضا، لكننا نكون أيضا بحاجة إلى عدم اختلاط المعانى والافكار، فقد تقدم المدرسة مفهوما، ويسمع الطفل مفهوما آخر فى الأسرة. وهنا تكمن الخطورة حيث أن المصدرين إسلاميان، فقد يؤدى هذا بالطفل إلى عدم الثقة فى أيهما أو فى كليهما.

إنه لمن العبث الفصل بين التعليم النظامى والتعليم اللانظامى فى أى مجتمع من المجتمعات ذلك لأنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أيا منهما مهما توفرت له فرص وإمكانيات التجديد والإصلاح والتطوير وتنوع المؤسسات وتوفر النماذج، لا يمكن أن يعمل بنجاح فى منأى عن الآخر حتى وإن ادعى كل منهما الاستقلالية عن الآخر، فهذه العلاقة مصيرية متأصلة فى طبيعة العملية وجذورها، عالقة فى مفهوم التعلم الانسانى، وهما متكاملتان متساندتان على نحو مقصود أحياناً وعلى نحو عفوى فى أغلب الأحيان.

إننا لو تأملنا فى وظيفة واحدة –مثلا– من وظائف أجهزة ووسائل الاتصال الحديثة، فسوف نلمس الخطورة الكبيرة التى تتعرض لها الأقلية المسلمة مما يحتم عملية التكامل والتازر بين كافة الوسائط التربوية لدرء مثل هذا الخطر. فلوسائل الاتصال دور هام فى خلق الدوافع لدى الأفراد، وتلك الدوافع هى التى تلعب الدور الأساسى فى تحريك المواطن نحو هذا العمل أو ذاك. إن وسائل الاتصال والإعلام فى مجتمع مثل الولايات المتحدة الأمريكية (مجتمع الوفرة والاستهلاك) أصبحت تمثل سلطة قوية ومنظمة، بحيث أفقدت الأفراد حرياتهم وقدراتهم على التفكير الناقد.

وفى ذلك الشأن يصف (ميلز) C.W.P Mills المجتمع الجماهيرى Mass Society فى الولايات المتحدة فيقول (١٠)

- نجد جماعة قليلة من الناس تعبر عن آرائها أكثر مما تتلقى آراء الآخرين ذلك لأن مجتمع الجماهير قد أصبح مجرد تجميع للذين يحصلون على انطباعاتهم من وسائل الاتصال .

- أن وسائل الاتصال منظمة إلى أبعد حد بحيث يصعب إن لم يستحل على الفرد - أى فرد - أن يستجيب مباشرة إلى أى شئ يتعلق بالجماهير دون أن يخضع لأى نوع من التأثيرات.

- أن عملية تحويل الآراء إلى أفعال، خاضعة لتحكم السلطات التى تنظم وتضبط قنوات هذه الافعال.

- أن الجماهير لا تتمتع باستقلال ذاتى عن المنظمات، بل على العكس من ذلك فممثلو هذه المنظمات ينفذون إلى الجماهير مفقدين إياها أى ضرب من الاستقلال قد يتشكل نتيجة للمناقشة.

ولدلالة على خطورة وسائل الإعلام من خلال الأرقام، نضرب المثال التالى :

فقد وجد أن الشخص البالغ العاشرة من العمر فى أوربا يمضى نحو ٢٤ أربعا وعشرين ساعة أسبوعيا فى مشاهدة التلفزيون، أى مايعادل الوقت الذى يقضيه فى المدرسة، أما فى الولايات المتحدة، فيكون الشخص البالغ السادسة عشر من عمره، قد أمضى (١٥,٠٠٠) خمسة عشر ألف ساعة على الأقل من حياته يشاهد التلفزيون.

فإلى هذا الحد، أصبح نظام الإعلام والاتصال فى أى مجتمع من المجتمعات، متقدمها ونامياها مؤثرا فعالا فى مجريات أمور هذا المجتمع،

وعليه، إذا اعتبرنا أن ثقافة المجتمع تعتبر كيانا ديناميكيا فى عمليات الخلق والمحافظة والنشر، فإن من المنطق أن يكون هناك كيانان آخران يكمنان فيهما من خلال وثاقة العملية التى يتمتعان بها بالنسبة لعملية التنمية وهما التعليم والاتصال، التعليم لكيان يحافظ على الثقافة ويضع أسس الخلق الذى يريدها، والاتصال ينقل التعليم ويتيح الفرصة للمشاركة فى الوحدة الثقافية. (١١)

دور المؤسسات التربوية :

لعلنا بعد استقراء الاحتياجات والمشكلات التربوية الخاصة بالأقليات المسلمة نستطيع أن نقف وعلى الفور على الدور الذى يمكن أن تقوم به المؤسسات التربوية من أجل سد هذه الاحتياجات وسعيا نحو مواجهة هذه المشكلات، لكننا بالإضافة إلى ما سبق، نريد أن نستند إلى عدد من (التقارير) والواقعية فى التأكيد على بعض المهام الضرورية فى هذا الشأن

١- فنحن نؤكد هنا على أهمية توفير قاعدة مناسبة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية للأقليات المسلمة لما لهذه الظروف من أهمية قصوى فى رفع المستوى الثقافى وعلى سبيل المثال ففى الإحصائيات الرسمية الفرنسية والتى نشرتها منظمة العمل العربية جاء أن أكثر من ٥٦٠ ألف عامل مهاجر – معظمهم من المسلمين – يعيشون فى بيوت من القصدير والأحياء المتهدمة. واعترف تقرير المعهد العالى للإحصاء بأن هذه المساكن هى من أحقر وأقذر المساكن البشرية .. ويؤكد أن ٢٥٠ الف عامل مهاجر يعيشون مزدحمين فى بيوت لا تحتوى على الماء، وفى ظروف سكنية صعبة جداً.

وأكدت احصاءات سنة ١٩٧٥ م أن اكثر من ٣٢ ٪ من العمال العرب بفرنسا يعيشون الظروف نفسها، وتذكر إحصاءات المعهد العالى للدراسات الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية - كما جاء أيضا فى نشرة منظمة العمل العربية - أن ٣٠٪ من الجزائريين لا يملكون الماء فى بيوتهم و ٦٨٪ من بيوتهم خالية من التدفئة المركزية و ٨٥,٦٪ يعيشون فى بيوت مزدحمة أكثر من اللازم.

وتمضى النشرة فى دراستها قائلة (أن الذى ضاعف من حدة هذه الأزمة ظهور فئة جديدة من التجار المستغلين أطلق عليهم اسم (تجار النوم) ، فقد قام هؤلاء التجار بتأجير المبانى والمخازن القديمة وغير الصحية للعمال المهاجرين ليسكنوها وغالبا ما تكون قاعات النوم على شكل عنابر كئيبة تتنافى مع أدنى الشروط الصحية او الانسانية. (١٢)

ولكى نقف على الآثار الثقافية لمثل هذه الظروف، ينبهنا مسئول جزائرى فى تلك الفترة (أن هذا ينعكس على العلاقات بين الأفراد وبخاصة على الأطفال، فهناك ٢٢٥ الف جزائرى تقل أعمارهم عن الـ ١٦ سنة، وبين هؤلاء ترتفع نسبة الجانحين، إذ أنهم يضطرون إلى هجر دراستهم . (١٣)

لكننا نحمل المؤسسات التربوية فوق طاقاتها إذا قلنا أنها تستطيع مواجهة هذه الأوضاع وحدها، ذلك أن مواجهة هذا إنما يدخل فى نطاق (الدول العربية والإسلامية وكذلك المنظمات العربية والإسلامية فى وطننا الكبير).

٢- وهناك فئات من الشباب تذهب الى الدول الغربية، من أجل الدراسة ثم لا تعود إلى أوطانها. واذا كان هؤلاء فى تصرفهم هذا يخطئون

فى حق بلدهم الا أننا نخطئ خطأ أفدح عندما نهمل شأنهم ونعاملهم كأبناء عاقين. ذلك أن أطفالهم يقعون فريسة مشكلات ثقافية تؤدى فى النهاية إلى قطع أية صلة بينهم وبين الوطن الأم. ويروى أحد الصحفيين أن زوجة، مبعوث عربى مسلم إلى فرنسا تحدثت إليه تشرح لماذا يلعب طفلها وحده فى ركن من أركان المكان المخصص للأطفال فى حديقة (التويلرى) بباريس :

«لقد جئنا إلى باريس، و (محرم) فى الرابعة من عمره، أدخلناه مدرسة الأمومة بالحى، وهى المدرسة التى تلى فى الترتيب (روضة الأطفال)، وتسبق المدرسة الابتدائية قبل أن نغترب، كان (محرم) دائما بين أبناء عمومته وأبناء أخواله وخالاته. لقد افتقد الطفل هذه الصحبة بعد وصولنا إلى باريس، ولهذا فقد كان مقبلا على مدرسة الأمومة بفرحة الطفل العائد إلى رفاق اللعب، لكنه لم يجد هناك بالطبع رفاقه القدامى. وجد أطفالا لا يفهمون لغته، وكان يظنهم يرفضون اللعب معه، لكنهم لم يفهموه فحسب .. ».

– لكن اعتقد أن الأطفال لديهم قدرة على خلق شكل من أشكال التفاهم التلقائى الذى قد يتجاوز حاجز اللغة.

- غير صحيح أن. الطفل لا تربطه بالعالم إلا الكلمات، الألفاظ. عندما كان يتقدم من رفاقه مادا إليهم يديه محدثا إياهم بالعربية، كانوا أحيانا يقابلونه بالتجاهل وأحيانا بالعنف العدوانى... هو بالنسبة إليهم طفل غامض ما دام من أرض عربية.

- كيف كان رد الفعل لدى طفلك ؟

كان فى البداية يحاول أن يشدهم إليه، يشدهم من ملابسهم أو من

أيديهم، أحيانا كان يكتفى بأن يسير وراءهم من مكان إلى مكان عبر حديقة المدرسة بعد ذلك بدأ يتشاجر معهم، ويعتدى عليهم بدون مبرر.

– هل نمت لديه وتأصلت هذه النزعات العدوانية ؟

– لقد بلغت حدا مزعجا أدى بإدارة المدرسة أن تتصل بى – الأم – وبزوجى لنناقش معهم الموضوع، قالوا لنا أن (محرم) يعتدى على زملائه وزميلاته. هناك فترة نوم إجبارية فى مدرسة الأمومة كل يوم عند الظهر .. لكنه يرفض النوم بل يخلع حذائه ويبدأ فى ضرب الأطفال النائمين الذين يصرخون من ألم الضربات أو من مجرد الفزع.

– كيف كان التصرف ؟

– قررنا ألا نتركه فى المدرسة إلا نصف الوقت فقط، إلى أن يتعود على الجو الجديد .. ونعود، واختفت النزعات العدوانية، لكن حل محلها ميل واضح إلى الانطواء والعزلة. (١٤)

إن هذه الصورة (الميكروسوبية) المفصلة توقفنا على ما يجب القيام به من قيام (مكاتب) خاصة للخدمة الاجتماعية والنفسية تابعة للمؤسسات التربوية أو السفارات والقنصليات الإسلامية، ذلك أن ترك هؤلاء يغوصون فى هذه المشكلات لا بد أن يؤدى إلى فقدهم دينيا وثقافيا ويكونون صيدا سهلا للمؤسسات الصهيونية والإلحادية وما أشبه.

٣- وفى دولة إفريقية مثل (ليبيريا) كان ٩٠ / من سكانها مسلمين، ولكن حين قدم زنوج الولايات المتحدة إليها فى منتصف القرن الماضى كانوا جميعهم قد اعتنقوا المسيحية وانفرد هؤلاء بالسلطة والنفوذ السياسى والاقتصادى والثقافى فى البلاد، بل إنهم أحالوا أهالى البلاد الأصليين من المسلمين إلى غرباء وهم أصحاب الأرض الشرعيين.(١٥)

فلقد قاموا بأكبر حركة اضطهاد للمسلمين من سكان البلاد الأصليين، وصادروا حقوقهم، ومارسوا ضدهم التفرقة العنصرية، بل إن أخطر مايمكن قوله، أنه قد تم تحويل عدد من القبائل المسلمة الى اعتناق المسيحية، وذلك لأن النشاط التبشيرى اعتمد على أن السلطة الفعلية فى البلاد فى يد قيادة مسيحية، بالإضافة إلى الوسائل المادية الهائلة التى تملكها وسائل التبشير، ومن هنا فقد وقف النمو الإسلامى فى تلك البلاد وظهرت الكنائس التى لم يكن يسمع عنها من قبل وشاهد القوم رجال الكهنوت من المسيحيين فى طول البـــلاد وعرضـــها، بل إن الأناجيل توزع مجانا على طبـــقات الشعب المخـــتلفة. (١٦)

ولا بد من الإشارة إلى أن الصحوة الإسلامية الحالية قد عرفت طريقها إلى هذه البلاد، فقام نشاط تعليمى إسلامى عظيم، لكن الواجب الإسلامى وحق الأخوة الإسلامية فى السراء والضراء يضع أمام المسلمين فى عالمنا العربى والإسلامى، بل المسؤلين فى رابطة العالم الإسلامى والأزهر والرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد فى المملكة العربية السعودية ووزارت الأوقاف فى البلاد العربية والإسلامية مسئولية خاصة نحو أبناء الإسلام فى ليبيريا وغيرها من المناطق التى تعيش ظروفا مماثلة، من أجل مد يد العون المادى والروحى والمعنوى من أجل تحقيق النهضة الإسلامية المرجوة.

كذلك فإن الجامعات العربية والإسلامية مدعوة بتخصيص المنح الدراسية لأبناء ليبيريا وإرسال العديد من الكتب الإسلامية باللغة العربية والإنجليزية إلى مسلمى تلك الأنحاء وتقديم المساعدات للمشاركة فى بناء المساجد والمدارس الإسلامية، وإرسال الدعاة والمدرسين والأطباء والمهندسين. (١٧)

٤- أما بالنسبة للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى، فإنهم يحتاجون إلى نوعية أخرى من الجهود نظر لظروفهم الخاصة*.

ففى مجتمع الشباب يلقنون منذ دخولهم روضة الأطفال مناهج تعليمية مبنية على إنكار الله تطبيقا لنص الدستور، حتى إذا ما وصلوا إلى المرحلة الجامعية، فإنهم يدرسون تاريخ الحزب الشيوعى بعمق وتفصيل، ويختمون تعليمهم فى السنة الرابعة بدراسة علم الإلحاد المبنى أساسا على نقص الاديان وإنكار وجود الله.

ولا بد أن يؤدى استمرار هذا النهج على مدى ستين عاما، مدعوما بكافة وسائل الإعلام والتثقيف إلى إحداث تغيير شامل فى البناء الفكرى والنفسى لدى أجيال الشباب فى مجتمعات المسلمين. وقد تحقق ذلك بقدر لا ينكر بتأثير هذه المناهج أولا، ثم نتيجة للإغراءات والامتيازات التى يحصل عليها الطلاب إذا ما انخرطوا فى سلك الحزب فأعضاء الكومسمول ومنظمة الشبيبة الشيوعية لهم الأولوية فى الالتحاق بالجامعات والمعاهد، أما غيرهم فليس لهم الحق فى الاشتراك فى النشاطات الطلابية المختلفة، ولا مجال أمامهم بعد التخرج إلا فى نطاق الوظائف العادية.

لكن ثمة قطاع آخر من المسلمين لا يزال أشد حرصا على دينهم، معتصم به فى مواجهة كافة العواطف والأنواء، وهؤلاء هم الذين يصدق فيهم الوصف الذى ورد فى الحديث الشريف، (القابضون على الجمر) (١٨). هؤلاء هم الذين يرسلون أبناءهم الى بلدة (نمانجن) الاوزبكية ليقيموا عند حفظـــة لقرآن هناك، يحفظون ويتلقون منهم القدر الممكن من الثقافة الدينية، وأمثالهم هم الذين نذروا أنفسهم لهذه الرسالة، أن يظل القرآن الكريم على الأقل محفوظا فى قلوب المسلمين وعلى ألسنتهم، وليس فقط فى المصاحف المخطوطة التى تحتفظ بها الأسر القديمة.

---

* نذكر القارئ بأن هذه الدراسة تمت قبل انهيار الاتحاد السوفيتى .

وهؤلاء هم الذين يوفدون أبناءهم إلى معهد بخارى الدينى بعد مرحلة التعليم الإبتدائى ليقضوا هناك سبع سنوات ينتقلون بعده إلى معهد طشقند العالى فى دراسة لمدة اربع سنوات أخرى وليتخرجوا بعد ذلك خطباء ووعاظا وقراء، وهم صابرون على ذلك رغم أنه من غير المعقول أن يكون عدد المسلمين ٤٠ مليونا وأن تخصص لتعليم الدين لأبنائهم مدرستان فقط لا تستوعبان أكثر من ١٠٠ طالب فى كل صفوف الدراسة.

وهؤلاء هم الذين يمولون كافة صور النشاط الدينى التى لا تقدم لها الحكومة أى عون مالى، رغم أنها وضعت يدها على الأوقاف التى كانت تؤدى هذه المهمة، هؤلاء يقدمون تبرعاتهم ويعتبرونها زكاة – إلى المساجد ، وتجمع حصيلة التبرعات ثم توزع على خمسة مصارف : نفقات المسجد ، والصيانة وراتب الإمام – نفقات الإدارة الدينية بموظفيها ونشاطاتها المحلية، مثل إدارة المعهدين الدينيين ودفع رواتب شهرية لطلابها – العلاقات الخارجية للمسلمين السوفييت، المؤتمرات والوفود وغيرها – ثم يقتطع من هذه التبرعات أيضا (سهم) يرسل إلى الحكومة يضم إلى ميزانية الآثار القديمة، وسهم خامس وأخير تحصل عليه الحكومة يوضع تحت بند : أمن وسلام العالم .. (١٩)

والطلاب الذين يصرون على دراسة الدين فى معهدى بخارى وطشقند يدفعون من روابتهم (ضرائب) للدولة، يسمونها (نالوج) أى عقوبة أو جريمة باللغة الروسية، وبواقع راتب شهرين فى السنة. والمبرر الذى تبرر السلطات به هذه الضريبة هو أن الفرد فى المجتمع السوفيتى لا بد أن يؤدى عملا منتجا لأنه فى مقابل ذلك يتلقى خدمات مجانية فى التعليم والعلاج، ويدفع أجرا رمزيا للسكن، والذين يتعاطون (مهنة الدين)، طلابا كانوا أم خطباً ووعاظا، هؤلاء يصنفون باعتبارهم أعضاء غير منتجين فى المجتمع، وعليهم

أن يدفعوا للدولة ما يشـــبه التعويض لأنهم باختيارهم هذا أصبحوا يستفيدون ولا يفيدون.

وبالطبع فإن مد يد المساعدة لهؤلاء المسلمين بطريق مباشر قد يكون أمرا عسيرا فى الاتحاد السوفيتى ولا سبيل هنا إلا عن طريق الإذاعات الإسلامية بأن توجه إليهم برامج خاصة لتدعيم ثقافتهم الدينية.

وهناك سبيل آخر يمكن لمثل هذه البرامج أن تقوم به غير التثقيف الدينى واللغوى، وهو التأكيد دائما على أهمية (تكثير النسل) حيث يتوفر والحمد لله لدى المسلمين هناك إحساس بأن تلك وسيلة ضرورية فى سبيل المقاومة، يدلنا على ذلك ما نشرته مجلة (أنباء موسكو) فى يونيه ١٩٧٩م من أن عدد سكان روسيا الاتحادية زادوا بنسبة ٦٪ من عام ١٩٧٠ - ١٩٧٩ ، بينما زادت نسبة السكان المسلمين فى جمهورية طاجيكتان ٣١٪ ، وكانت نسبة الزيادة فى اوزبكستان ٣٠٪ وتركمانيا ٢٨٪، أى أن نسبة زيادة السكان المسلمين كانت خمسة أضعاف الزيادة بين الروس. (٢٠)

٥- وإن المسابقة الدولية التى تقيمها المملكة العربية السعودية لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره لمثل طيب لا بد من أن تحتذى به الدول الإسلامية الأخرى وتتوسع فيه وتشرك فيه أبناء الأقليات الإسلامية، ومما يؤكد لنا ذلك ما نقرأه، فى السطور التالية لطالب مسلم فى الحادية العشرين من عمره، يدرس فى كلية الهندسة فى كوبنهاجن بالدانمرك اشترك فى المسابقة الدولية السابعة : (إن امكانياتى قليلة بالنسبة لمعرفة اللغة العربية والتكلم بها.. ولكن حبى للإسلام ورغبتى الملحة فى تلاوة القرآن الكريم هما من الدوافع التى تدفعنى لدراسة اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم. وقـــد أعاننى الله على تـلاوة القرآن الكريم وحفـــظت جزءا منه بالإضافة إلى تجويد الجزء الآخر.

وروى ذلك الشاب أن الحياة فى الدانمرك حياة مادية بحتة خالية من مبادئ الإسلام، ولا يوجد من المدارس الدينية سوى مدرسة واحدة لتعليم المسلمين، وأكد أن ثلاثمائة وأربعين دانمركيا قد أشهروا إسلامهم. (٢١)

وإذا كان هذا الشاب قد استطاع بظروفه الأسرية أن ينجح فى ذلك إلا أنه من العسير الاعتماد على هذا السبيل بالنسبة للجميع. إن المراكز الإسلامية، وخاصة فى أمريكا تفتقر إلى الموجهين الإسلاميين ومعلمين لحفظ القرآن وتجويده، يقول هذا الشاب «ولذلك فنحن نشعر بصعوبة المسابقة السنوية الدولية .. التى تقام فى المملكة . والمسابقات المحلية التى تقام فى بعض الدول الإسلامية الأخرى .. ولذلك أرجو أن ترسل الدول الإسلامية الأساتذة والموجهين ومعلمى القرآن الكريم لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده، وتفسيره إلى المراكز الإسلامية فى الخارج» (٢٢) .

٦- إن الاخوة المسلمين فى الأقطار العربية وغير العربية لا يعرفون الكثير عن مسلمى يوغسلافيا، فجامعة (بلغراد) تهتم بدراسة اللغة العربية وبها قسم للدراسات الشرقية، إلا أنها فقيرة فى الكتب والمراجع العربية، بل إن المسلمين هناك لا يحصلون على أية صحيفة أو مجلة عربية مما يجعلهم تواقين إلى ذلك ويرجون المؤسسات والمنظمات الإسلامية أن تسعفهم ببعضها حتى يكونوا على اتصال دائم بإخوانهم المسلمين فى الاقطار الاخرى.

لقد قال طالب يوغسلافى مسلم يدرس العربية وآدابها لبعثة صحيفة كويتية «أليس غريبا أن تصل الكتب العربية إلى أثينا، عاصمة اليونان، وتقف عندها ؟ إذ المسافة بين اثينا وبلغراد العاصمة - لا تزيد عن نصف ساعة».

ويعلق أحد أعضاء البعثة بأن كلام الطالب صادق، فقد جئنا إلى بلغراد عن طريق اليونان، وفى ميدان سينتاجا، أكبر ميادين العاصمة اليونانية كانت الكتب والمؤلفات والصحف العربية تحتل مكانا بارزا فى أكشاك بيع الصحف والمكتبات وعلى مدى أسبوعيـــن كاملين بين بلغراد وسراييـــفوا، لم نجـد صحيفة عربية واحـــدة فى أى مكان. (٢٤)

هل نحن فى حاجة إذن الى التأكيد على المكاتب الثقافية والإعلامية للدول العربية أن تقوم بهذا الواجب البسيط ؟

٧- تمتاز الثقافة الإسلامية أينما كانت وحيثما وجدت، بوحدة الجذور والينابيع واتفاق المقاصد والغايات. ولكن هذه الثقافة الواحدة اتسمت بتعدد خصوصياتها وتلون أشكالها كنتيجة طبيعية لاتساع رقعة العالم الإسلامى جغرافيا، وتنوع مجتمعاته بيئيا، وتباين أنظمته السياسية والاقتصادية، فضلا عن تباينه عن المجتمعات الأخرى غير الإسلامية والتى تعيش بها أقليات إسلامية. (٢٥)

وهكذا فان أية أستراتيجية ترمى إلى توثيق عرى الوحدة بين المسلمين وتحقيق تلاحمهم، لا بد أن تتخذ الوسائل الكفيلة باطلاع شعوبهم على الخصوصيات الثقافية التى تميز بعضهم عن بعض والسبل اللازمة لتنشيط التفاعل الثقافى بينهم، وبذلك تبنى وحدة الأمة الإسلامية على أسس نوعية من التعارف والتفاهم والتثاقف عملا بقوله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفو ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وتلعب اللغة دورا رئيسيا فى عمليتى التنمية الحضارية والتبادل الثقافى لا لكونها أداة اتصال وثيق تعبر بواسطتها عن المفاهيم والأفكار

والقيم، وتحفظ بها التراث الثقافى والعلمى فحسب، وإنما كذلك بوصفها عنصرا جوهريا من العناصر المكونة للثقافة والفكر تتجاوز أهميتها التعبير إلى التغيير بحيث تؤثر القوالب اللغوية فى البنيات الفكرية، والأنظمة المفهومية والأنماط السلوكية للجماعة الناطقة باللغة. ولهذا أولت المجتمعات المعاصرة المتطورة تخطيط السياسة اللغوية اهتماما بالغا وعناية خاصة فشجعت البحوث المتعلقة بها ، ونما نتيجة ذلك علم جديد مشترك بين علوم الإجتماع والسياسة واللغة وأطلق عليه اسم (علم اللغة الاجتماعى)، موضوعه التنوع اللغوى فى المجتمع الواحد، وهدفه تخطيط السياسة اللغوية بصورة موضوعية وطريقة علمية. (٢٦)

وقد أفرز الوضع اللغوى للمسلمين فى الأقطار غير العربية نتائج خطيرة على توجهات الأمة الإسلامية مما يستوجب استنفار جهود كافة المؤسسات والمنظمات والجامعات الإسلامية لتقديم خبرتها ومشورتها فى هذا الشأن وضرورة تشجيع تعلم لغة إسلامية عالمية لعموم المسلمين تكون لغة تفاهم مشتركة بينهم ووسيلة اتصال بينهم وبين سائر البلدان الإسلامية. ولا حاجة بنا إلى القول بأن اللغة التى توفرت لها مقومات تأدية هذه الرسالة هى لغة القرآن الكريم التى يصلى بها المسلمون ويؤدون بها شعائر دينهم، والتى غدت بفضل الرسالة الإسلامية التى تحملها لغة عمل فى المنظمات الدولية والمحافل العلمية. (٢٧)

وإنه ليحضرنا فى هذا المجال الإشارة إلى بعض البلاد التى تدخل فى نطاق الدول العربية الإسلامية، ومع ذلك توجد بها مناطق واسعة لا يشكل المسلمون بها أغلبية ويحيط بهم مناخ ثقافى يبعدهم كثيرا عن المناخ الإسلامى، ونسوق مثالا على ذلك (جنوب السودان) ، ففى بحث خاص بهذا الشأن يشير الى أن فى المديريتين الاستوائيتين ٤٣ مدرسة ابتدائية تسير

فيها الدراسة باللغة الانجليزية مقابل ٢٠ مدرسة فقط تسير فيها الدراسة باللغة العربية (ومثل هذا الأمر فى المرحلة المتوسطة). (٢٨)

وفى كامل الإقليم يسير التعليم الثانوى باللغة الانجليزية باستثناء أربع مدارس فقط تعلم باللغة العربية.

إن هذا الوضع قد شكل بيئة مناسبة للجهود التبشيرية والغربية أن تبث عقائدها وقيمها واتجاهاتها وأفكارها مما يجعل الحاجة ماسة إلى أن تمد الدول الإسلامية الأخرى القادرة يد المعونة لتوفير وسائل التثقيف والتعليم العربى لمسلمى مثل هذه المناطق.

٨- وأخيرا فإنه مما يرتبط بما سبق توجيه الانتباه إلى فئات أخرى تذهب إلى الإقامة والهجرة إلى الخارج - خارج العالم الإسلامى - وتكون على علم باللغة العربية، حتى إذا جئنا إلى جيلهم الثالث من الأبناء، نجد نسيانا كاملا للغة العربية، ومثالنا هنا هو ما حدث بالنسبة لمسلمى استراليا. (٢٩)

إذ يسعى العرب إلى فتح المدارس العربية هنا وهناك .. وفى عام ١٩٧٧ م كانت توجد ثلاث مدارس عربية تديرها أربع راهبات لبنانيات يتعلم بها ٤٢٠ طفلا من المسلمين والمسيحيين اللغة العربية والإنجليزية والفرنسية. وفى كل عام ترفض إدارة المدرسة أكثر من مائة تلميذ جديد لعدم توفر الاماكن.

وفى مسجد (لاكنبه) بدأ تعليم العربية فى فصول مكشوفة حتى تم بناء المسجد فهل يمكن المحافظة - على تعليم اللغة العربية بصفة مستمرة ومستديمة فى استراليا؟ إنها أمنية الجميع، ولكن الواقع شئ آخر، والذوبان اللغوى أمر يصعب تداركه إلا بافتتاح مدارس خاصة

عربية استرالية رسمية معترف بها لأن مقررات المدارس النظامية الأسترالية الحالية وواجباتها ترهق الطفل إرهاقا كبيرا، فما بالك لو أضفنا له لغة جديدة، عليه أن يدرسها فى إجازاته وعطلاته؟ ... إنه إرهاق كبير.

وبعـــــد ..

ان الاحتياجات كثيرة .. والمشكلات متعددة .. والثقافة متغيرة ومتطورة تحتاج من المؤسسات التعليمية أن تلهث وراءها حتى تستوعبها وتستجيب لمعطياتها وتجتهد فى تطويرها وتوجيهها ...

obeikan.com

الهـــوامش

١- Edwin K. Townsend Cales : Adult Education in Develping Countries, Pergman press, Oxford, 1977, P. 18 .

٢- أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى. القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٥ ، ص ٣٣٠ .

٣- المرجع السابق . ص ٣٣١ .

٤- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٠ ، ص ٣٠ .

٥- المرجع السابق . ص ٣١ .

٦- جون ديوى : التربية فى العصر الحديث، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد ومحمد حسين المخزنجى، القاهرة، النهضة العربية ، ١٩٤٩ ، ص ١٤٧ .

٧- فيليب . هـ. فينكس : التربية والصالح العام، ترجمة محمد الغزاوى، ويوسف خليل، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٥ ، ص ١٥٤ .

٨- Tom Lovtt : Adult Education Community development and the Working Class. Ward Lock Educational, London, 1975,P.20.

٩- Ivor Morrish : Aspects of Educational Change, George Allen, Unwin, London ,1976 , P. 20 . .

١٠- بوتومور : الصفوة والمجتمع، دراسة فى الاجتماع السياسى، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧ ص ١٤٩ .

١١- عبد الله أبو طبانة : تكامل التعليم المدرسى والتعليم خارج المدرسة، مجلة التربية الجديدة، العدد الثلاثون، (عدد خاص)، بيروت، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، سبتمبر / ديسمبر.

١٢- مجلة الوطن العربى ، باريس، العدد ١٦ الصادر فى يونية ١٩٧٧ .

١٣- المرجع السابق.

١٤- الوطن العربي العدد ٤٦ ، يناير ١٩٧٨ .

١٥- عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى ليبيريا، مجلة التضامن الإسلامى، تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة، السنة الأربعون الجزء الأول رجب ١٤٠٥ هـ -٣ ابريل ١٩٨٥ ، ص ٥٨ .

١٦- المرجع السابق - ص ٥٩ .

١٧- المرجع السابق - ص ٦٢ .

١٨- فهمى هويدى : استطلاع مصور عن (المسلمون فى الاتحاد السوفيتى)، مجلة العربى الكويتية، يناير ١٩٨٠ ، العدد ٢٥٤ ، ص ١٠٣ .

١٩- المرجع السابق - ص ١٠٤ .

٢٠- المرجع السابق ص ٩٠ .

٢١- مجلة التضامن الإسلامى، السنة التاسعة والثلاثون، الجزء الثانى عشر، جمادى الثانية ١٤٠٥ هـ - مارس ١٩٨٥ ، ص ٥٠ .

٢٢- المرجع السابق - ص ٥٩ .

٢٣ المرجع السابق - ص ٦٠ .

٢٤- مجلة العربى الكويتية، العدد ٣٣ ، ابريل ١٩٧٨ .

٢٥- على القاسمى : تنمية اللغات الإسلامية وأثرها فى وحدة الفكر الإسلامى، مجلة معهد اللغة العربية ، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، العدد الثانى ١٤٠٤ هـ - مارس ١٩٨٥، ص١٧ .

٢٦- المرجع السابق - ص ١٨ .

٢٧- المرجع السابق - ص ١٩ .

٢٨- عبد العزيز الجلال :التعليم واللغة العربية فى جنوب السودان ، المرجع السابق، ص ٣٨١

٢٩- مجلة العربى الكويتية ، العدد ٢٢٩ ، ديسمبر ١٩٧٧ م .

obeikan.com